

محاضرات الفقه الأكبر

الشيخ أحمد القاضي

المقطع (١) : المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

فإنه يطيب لي في هذا الصباح السعيد أن أجدد العهد مع إخواني، وأن نجتمع على البر والتقوى والتواصي بالحق والصبر، وأن نتذكر ما أنعم الله تعالى به علينا من نِعَمه العظيمة التي يجب على كل مؤمن دومًا أن يستشعرها.

ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد قال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أجل والله إنها لَمِنه، وكرر الله تعالى هذه المنّة في قوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ ثم قال ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾.

فلا والله، ما اكتسبوها بكَدّ يمينهم ولا بعرق جبينهم، بل كانوا في جاهلية جهلاء وكانوا في ظلالة عمياء حتى استنقذهم الله تعالى ببعثة محمد ﷺ، فأحال حياتهم من جديد وأنشأهم خلقًا جديدًا، ولا تزَل هذه النعمة سارية في الأجيال جيلًا تلو جيل حتى آلت إلينا النوبة فها نحن نتفيؤُ ظلالها.

ونحن بحمد الله تعالى نستشر نعمة أخص وهي أن الله تعالى أورثنا العقيدة الصافية الخالية من كل كَدر وشَوْب، فلئن كان الإسلام بمفهومه العام يندرج تحته فئام وأقوام فإن أخص أهل الإسلام هم أهل السنة والجماعة الباقون على السنة المَحْضَة، ذلك أن نبينا ﷺ أخبر أن هذه الامة ستفترق كما افترقت الأمم السابقة بل وأكثر؛ إلى ثلاثة وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، قال: "هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي".

فظلت هذه العقيدة مصونة ومحفوظة بحفظ الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. وأعظم الذِكر المحفوظ هو هذه العقيدة لأنها لُبُّ الدين وأُسّ الملّة. وحِفظ الله تعالى لها، جرى بأن قَيّظَ لها من حراسها ورُواتها ودُراتها من يذّبون عنها وينفون عنها غلو الغالين وانتحال المبطلين. فكانت هذه العقيدة الصافية النقية التي نرتبط بنعمة الله تعالى علينا أن أورثنا إياها خالصةً من كل شر.

والواقع أننا فيما سوف نستعرضه في هذا الصباح من معلومات هو نوع من التجديد أيها الكرام، هو نوع من التجديد والمذاكرة وإلا فإنها لا تخفاكم، وسوف نسير عبر هذه المشجرات التي بين أيديكم لنرسم خريطة ذهنية لعقيدة أهل السنة والجماعة.

ويجب في تقديري على كل مؤمن أن يُحسن التعبير عن عقيدته في كل مكان، بحيث تبدو له الصورة واضحة إذا سُئل عن الإسلام وعن الإيمان أن يتكلم بلسان فصيح يصيح، ويقول كما قال مؤمن القرية: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا

مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۞ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ۞ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

هذه النفسية هي النفسية التي ينبغي أن يَتَمَلّكَها كل مؤمن، بحيث أنه يعبر عن عقيدته ببيان واضح وأسلوب جَلِيْ دون تَلَجلُج أو تَلَعثُم، لا سيما أننا الآن كما ترون نعيش في عالم مضطرب، تتجاذب فيه الفِرَق والأهواء وكلٌّ يغني على ليلاه. فكان حَرِيًّا بنا ونحن أهل الحق المستيقَنِ منه أن يكون ممن يذكره ويبينه للناس، ليستنقظهم الله به.

تأملوا قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ما البيّنة؟ ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾، فلإن كان رسول الله ﷺ قد غاب عنا بجسده فسنته باقية بحمد الله لم يُثْلَم ولم يُخْرَم حرف واحد منها.

المقطع (٢) : خصائص العقيدة وثمراتها

خصائص العقيدة

أول مقام هو في الحقيقة نظرةٌ شمولية لخصائص العقيدة الاسلامية التي نتحدث عنها. هذه العقيدة ليست كأي أيديولوجية يتحدث عنها الناس أو كبقايا من ملّة سماوية محرّفة، لا.. هذا شيء آخر، هذه عقيدة ربانية متكاملة.

فمن أعظم خصائص العقيدة الاسلامية:



التوحيد

ونقصد بالتوحيد هنا المدلول الشرعي للتوحيد من وَحَّد يُوحّد توحيدًا، أي اعتقد الله واحدًا، فالتوحيد ها هنا هو اعتقاد الله واحدًا في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، واعتقاد محمد ﷺ هو المبلغ الوحيد عن ربه عز وجل، فلا مجال للوَجْدْ والذوق والكشف والعقل المنافي للشرع وما أشبه ذلك. فالتوحيد في هذه العقيدة، توحيد العبادة برب العالمين وتوحيد الاتباع لسيد المرسلين. هذه خاصية.

ومعلوم يا إخوة أن الإنسان إذا كانت وجهته واحدة جَمع شتات قلبه، أما الذي له عدة شركاء، يلتفت تارة هنا وتارة هنا لا يستقر له قرار، فإذا كان الانسان يعبد ربًا واحدًا ويتبع نبيًا واحدًا ويؤمن بكتاب واحد تجتمع نفسه وقلبه ولا تذهب نفسه أشتاتًا.

التوقيف

الخاصية الثانية: التوقيف، كل عقيدة سوى عقيدة أهل السنة والجماعة فهي في الحقيقة أمشاج من آراء وقياسات وموروثات ورؤى وأحلام و ... الخ. أما عقيدة أهل السنة والجماعة فهي ذات مستندٍ شرعي أصيل، كل جملة فيها تُنْمَى إلى "قال الله" "قال الرسول". هذا هو التوقيف، المقصود بالتوقيف يعني أن الله تعالى أوقفَنا ورسولُه ﷺ على كل فقرة من فقراتها.

موافقة الفطرة السليمة

الخاصية الثالثة: موافقة الفطرة السليمة، الفطرة يعني في أصل معناه هو ما جُبل عليه العَبد من غير سبق تعليم، فربنا سبحانه وبحمده رَكَزَ في نفوسنا شاهدًا وهو الفطرة، قال الله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وقد خاض الناس في تعريف الفطرة، وأصح وأصدق هذه التعريفات أن الفطرة هي الإسلام، فقد فَطَرَ الله جميع العباد على الاسلام له وحده، وإن لم يدركوا بمجرد الفطرة تفاصيل العقيدة والشريعة، فما أن تُلقى هذه العقيدة على أحد حتى يجِدُ شاهدها في قلبه.

الشمول

من مزايا هذه العقيدة: الشمول، فالعقيدة الإسلامية لم تَدَعْ شاذة ولا فاذة إلا وبيَنَتْها وأتت عليها، فليس في شريعة الاسلام مناطق ضبابية، ليس في عقيدة أهل السنة والجماعة مناطق ضبابية، مجهولة وغير معروفة، كل شيء بحمد الله بَيِّن، قال الله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، شاملة.

هناك أيها الكرام أسئلة كونية تقع في قلب كل حي، لا بُد أن يملك الإجابة عليها، وأُعبّر عن هذا بالأبيات التي قالها إيليا أبو ماضي أحد شعراء المهجر، يقول:

جئت، لا أعلم من أين، ولكنّي أتيت
ولقد أبصرت قدّامي طريقا فمشيت
وسأبقى سائرًا إن شئت هذا أم أبيت
أصحيح أن بعد الموت بعثٌ ونشور
فحياةٌ فخلودٌ أم فناء فدُثور
أكلام الناس صدقٌ أم كلام الناسِ زور
أصحيح أن بعض الناس يدري؟
لست أدري.
ولماذا لست أدري؟
لست أدري

حَيْرَة مُطبِقة، لا يملك الجواب، بينما إذا أتيت إلى أي شيخ من شيوخ المسلمين أو عجوز من عجائزهم، تجد إجابة واضحة مطمئنة لكل هذه الأسئلة، من أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وما هي وظيفته؟ وإلى أين يسير؟ وإلى أين المنتهى؟ بل وحتى صِبيان المسلمين يملكون إجابات مقنعة في هذا المجال.

فالعقيدة الاسلامية شاملة، لا يمكن أن تجد -كما قلت- موضع يُقال هذا ما عندنا فيه شيء، كل شيء يحتاج إليه الإنسان فهو مشمول بالعقيدة الاسلامية.

التوافق وعدم التناقض

من مزاياها وخصائصها التوافق وعدم التناقض، هذه العقيدة انعكاس للقرآن، فإذا كان القرآن العظيم يصدّق بعضه بعضًا، فالعقيدة النابعة منه كذلك. تأمل قول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، يشبه بعضه بعضًا، يصدق بعضه بعضًا، يناسب بعضه بعضًا، ما يذكره في موضع يدلُّ عليه موضع آخر، ما يُثبته في موضع لا ينفيه موضوع آخر، يعني واضح أنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

حينما تأتي إلى كثير من العقائد والأفكار والإيديولوجيات التي تعصف ببني الإنسان، بل خُذ المتكلمين مثلًا الذين شطحوا عن طريقة أهل السنة والجماعة، تجد في كلامهم من التناقض ما لا تُخطئه العين. بينما عقيدة أهل السنة والجماعة متناسبة مطردة لا ينقض بعضها بعضًا، وهذا التوافق والانسجام والاطراد علامة الصحة، كما أن التناقض علامة البطلان.

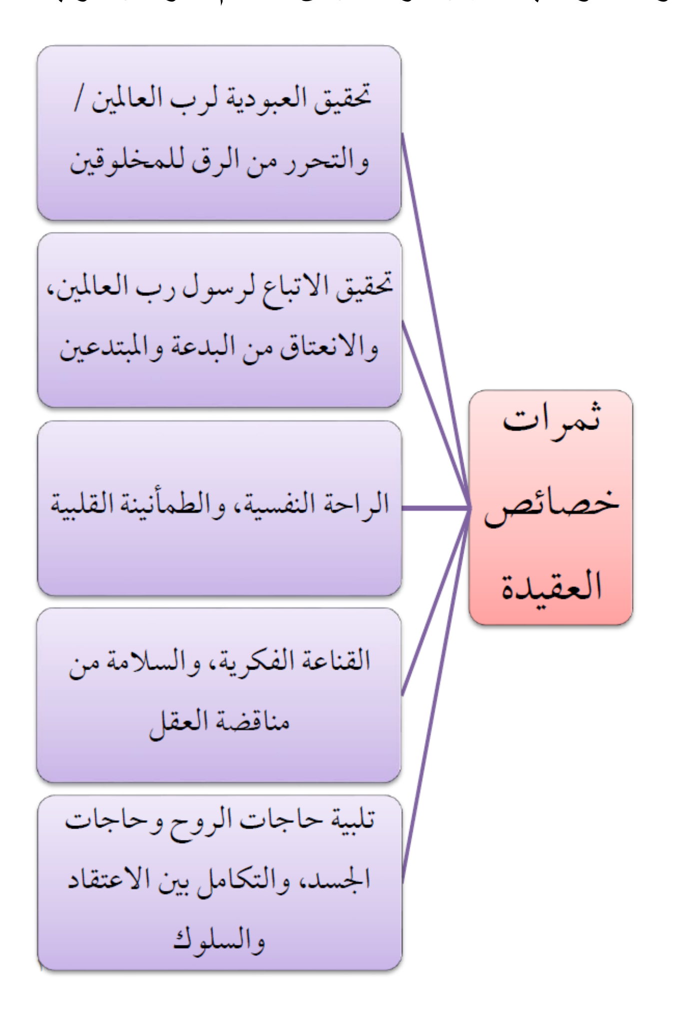
الوسطية

وأخيرًا فإن من خصائص هذه العقيدة: الوسطية، لأنها في الواقع بين الافراط والتفريط، بين الغلو والجفاء، تلبي حاجات الروح وحاجات البَدَنْ، فلهذا كان أهل السنة والجماعة وسطًا في جميع أبواب الدين بين طَرَفي ضلالة، وَسَطٌ بين طرفين، عدلٌ بين عِوَجَين، فهم مثلًا في باب أسماء الله -كما سيأتي- سنجد أنهم متوسطون في جميع أبواب الدين.

وخلاصة القول أن هذه العقيدة التي حملها العُدول عن العُدول، يحمل هذا الدين من كل خَلف عُدوله، حتى آلت إلينا من خلال المتون والزُبَد والخُلاصات التي سطّرها بنان كثير من العلماء المحققين، اتسمت بهذه الخصائص الربانية، فهذا لا شك أنه من نعمة الله تعالى علينا.

ثمرات خصائص العقيدة

هذه الخصائص، لا شك أنه سوف يكون لها آثار وثمرات، ومن أعظم آثارها وثمراتها:



تحقيق الهدف (تحقيق العبودية لرب العالمين / والتحرر من الرق للمخلوقين)

تحقيق الهدف الذي لأجله خلق الله الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

لابد أن ثمة غاية من خلق السماوات والارض، فأعظم غاية تحققها هذه العقيدة هو تحقيق ذلك الهدف: تحقيق العبودية لرب العالمين والتحرر من الرِّق للمخلوقين، لأن من لم يَعبد الله عَبَدَ سواه، قطعًا. الإنسان فيه معنى العبودية في طبعه لأنه خُلق ضعيفًا، فلا بد له من أن يكون عبدًا، إن لم يَكُنْ عبدًا لله صار عَبْدًا لغير الله، فكرامته أن يكون عبدًا لله لا لمثله من المخلوقين، ولهذا قال القائل:

ومما زادني شَرفاً وتيهاً ... وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأن صيَّرت أحمد لي نبياً

تحقيق الاتباع لرسول رب العالمين والانعتاق من البدعة والمبتدعين

الثمرة الثانية: تحقيق الاتباع لرسول رب العالمين والانعتاق من البدعة والمبتدعين، نعم والله.. يعني حينما تقول أيها المؤمن أشهد أن محمدًا رسول الله، معنى ذلك أنك تبصم بأصابعك العشرة أن المبلّغ عن الله هو محمد بن عبد الله، وأن ذلك يقتضي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر واجتناب ما عنه نهى وزَجَر، وأن لا يُعبَد الله إلا بما شَرَع.

خلاص الوجهة محددة، المرجعية واضحة. أما من لم تتضح عنده هذه الصورة من المذاهب المنحرفة فتجد أنهم يتأرجحون بين الأقوال وبين المتبوعين والرؤساء وأرباب الطُرق ونحو ذلك.

فالمؤمن -بحمد الله- مردّه إلى اتباع محمد ﷺ، مهما كنت تُعظم المشايخ وتجّلهم فإن بإمكان أي مسلم يقول لأعظم عالم: يا شيخ ما هو الدليل؟ أليس كذلك؟ والشيخ إذا قيل له ما الدليل على كذا وكذا لا يغضب، يعتبر أن هذه علامة صحة، أن هذا الإنسان مدرك لدينه وأنه يسأل عن الدليل.

يعرف أنه لا كما يقع مثلًا عند الروافض وعند الصوفية وعند كذا، مستعبَدين لأصحاب العمائل والأحوال، يقول أحدهم: ينبغي أن يكون المُريد بين يَدَي الشيخ كالجنازة بين يَدَي المغسل، ما هذا؟ لمن العبادة؟ لمن الاتباع؟

أما أهل السنة بحمد لله فإن أحدهم مهما كان، يقول لأكبر عالم: يا شيخ ما الدليل؟ فلا يرى في ذلك بأسًا، بل يرى فيه علامة صحة، فيقول الدليل: قال الله تعالى.. قال رسوله ﷺ.. فيُذعِن ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فجعل طاعة ولاة الامر من العلماء والأمراء تابعة لطاعة الله ورسوله.

الراحة النفسية، والطمأنينة القلبية

أما الثمرة الثالثة التي يُدركها كل صاحب ذوق فهي الراحة النفسية والطمأنينة القلبية، بحق يا إخوة.. يعني -سبحان الله- من سكب الله في قلبه هذه العقيدة وتخللت مسالك روحه، فإنه يجد راحةً وحلاوةً لا يعبر عنها بالكلمات ولكن الكلمات تعطي اضاءات.

هذا الذي يقول: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة"، وذاك الذي يقول: "والله لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من طيب العيش لجالدونا عليه بالسيوف". ماذا يعني؟

يعني أن ثمة وَجْد يجدونه من جراء هذه العقيدة، لأن العقيدة باختصار ترتّب لك الأشياء، تضع لك النقاط على الحروف، تعطيك إجابات مقنعة. إذا لم يكن الانسان مدركًا لهذه العقيدة، أمامه علامات استفهام كبيرة، وعلامات تعجب كبيرة لا يستطيع الانفكاك منها، تواجهه في ماجريات الحياة مصائب ومِحَنْ، فلا يدري كيف يفسرها.

فإذا طابت النفس بهذه العقيدة قرّت العين وارتاح الانسان، حتى ولو ابتُلِيَ في أشد أنواع البلاء المادي.

القناعة الفكرية، والسلامة من مناقضة العقل

ثم سِوى هذه العقيدة، سِوى هذه الطمأنينة والراحة النفسية، القناعة الفكرية والسلامة من مناقضة العقل.

هذه العقيدة متينة يا إخوان، متينة بمعنى الكلمة. كما أن السماء التي فوقنا يقول الله تعالى عنها ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣-٤]، كذلك سماء هذه العقيدة، ما ترى فيه من فُطُور، فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين، لا يمكن أن تجد في عقيدة أهل السنة والجماعة ثغرة أو نقطة ضعف أو شيء لا يمكن الإجابة عليه، بل كلامٌ يصدق بعضه بعضًا ويشهد بعضه لبعض ويجتاح كل شُبهة تخالفه.

تلبية حاجات الروح وحاجات الجسد، والتكامل بين الاعتقاد والسلوك

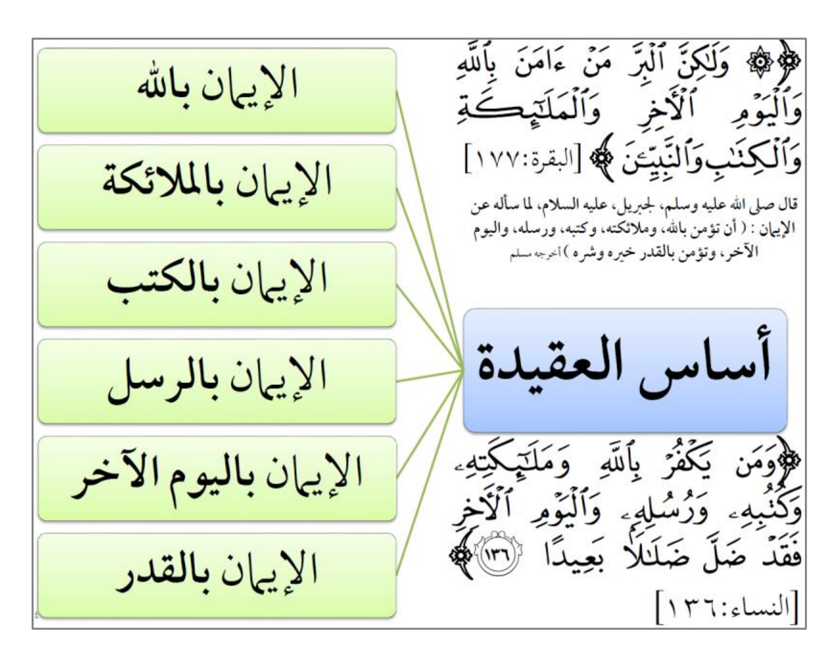
وأخيرا فإن هذه العقيدة تُثمر بسبب وسطيتها ما ألمحنا إليه سابقًا من تلبية حاجات الروح والجسد، فالروح لها أشواق، والجسد له مطالب. فلسنا كالمذاهب الغنوصية والفلسفات الروحانية التي لا تتعامل مع الإنسان إلا في عالم ما وراء الطبيعة والأحوال النفسية، تحاول أن تجلب له السعادة مثل النيرفانا عند البوذية والأحوال والمقامات عند الصوفية إلى آخره. ولا هي أيضا تُطلق للنفس العنان باتباع الشهوات كما هي المذاهب المادية، بل بين وبين، فتُعطي الروح حقها من العبادة لله تعالى والتعبير عن الحب والخوف والرجاء في محله الصحيح، وتُعطي البدّنْ حقّه، فالطعام والشراب والنكاح وغير ذلك من الحاجات هي محل اعتبار في هذه العقيدة.

هذه أيها الكرام كما رأيتم نظرة شمولية في بيان الخصائص والثمرات.

المقطع (٣): أساس العقيدة

فإذا ما دخلنا للتفاصيل، تفاصيل هذه العقيدة فلا شك أن العمدة في بيان العقيدة الاسلامية هو الكتاب والسنة.

وقد رأينا أن الله سبحانه وتعالى جمع بين أمور خمسة في غير ما موضع، فقال الله تعالى ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾، وكذا قال في بيان ضدّ ذلك ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. هذه الخمسة تقترن دومًا وهي أركان الإيمان.



وقد يقول قائل: فأين الركن السادس؟ أين القدر؟ ذلك أنّ النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور سأله فقال: "أخبرني عن الإيمان"، قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه". فلربّما ثار هذا الإشكال؛ وقيل فما بال القدر لا يذكر مع هذه الأركان في كتاب الله؟

الجواب عن ذلك يا كرام: أنّ الإيمان بالقدر عند التأمل هو في الواقع جزء من الإيمان بالله، ليس ركنًا مستّقلاً بمعنى أنّه قسيم لها. ولذلك تلاحظون في الحديث -في حديث جبريل- أنّه أعاد ذكر العامل فقال: "وتؤمن بالقدر خيره وشرّه" فكأنّ هذا والله أعلم من التفصيل بعد الإجمال؛ لأنّ القدر .. ما هو القدر؟ القدر هو علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه، فآل الأمر إلى الإيمان بالله.

فلا تعجب إذا قرأت مثلا في شرح العقيدة الطحاوية قوله "الأصول الخمسة" يقصد (أركان الإيمان) فهي أصول خمسة.

وأيًّا كان، موضوع العدّ: ستّة، خمسة، سبعة... من العلماء من جعلها سبعة وأضاف إليها الإيمان بالجنّة والنّار، لكنّنا نقول أنّ الجنّة والنّار داخلتان في الإيمان باليوم الآخر. لا يهمّنا العدد، المهم المضمون.

فلنتناولها كما بيّنها حديث جبريل وهذه هي - لا شكَّ - أسس العقيدة الإسلامية.

المقطع (٤) : أنواع الإيمان

الإيمان بالله

فأوّل أساس من هذه الأسس: الإيمان بالله. وهذا يا إخوة لا يُخفى عن الجميع أنّه هو بيت القصيد وهو الذّي تنسدل منه وتتفرع عنه بقيَّة العقائد.



الإيمان بالله، ماذا يعني؟ يعني - الإيمان بالله - الإعتقاد الجازم بوجوده سبحانه وأنّه ربُّ كل شيء ومليكه، المستّحق للعبادة وحده دونما سواه، المتَّصف بصفات الكمال، المنَّزه عن صفات النقص.

هذا التعريف - في الواقع - يتضمن عند تحليله أربعة أمور:

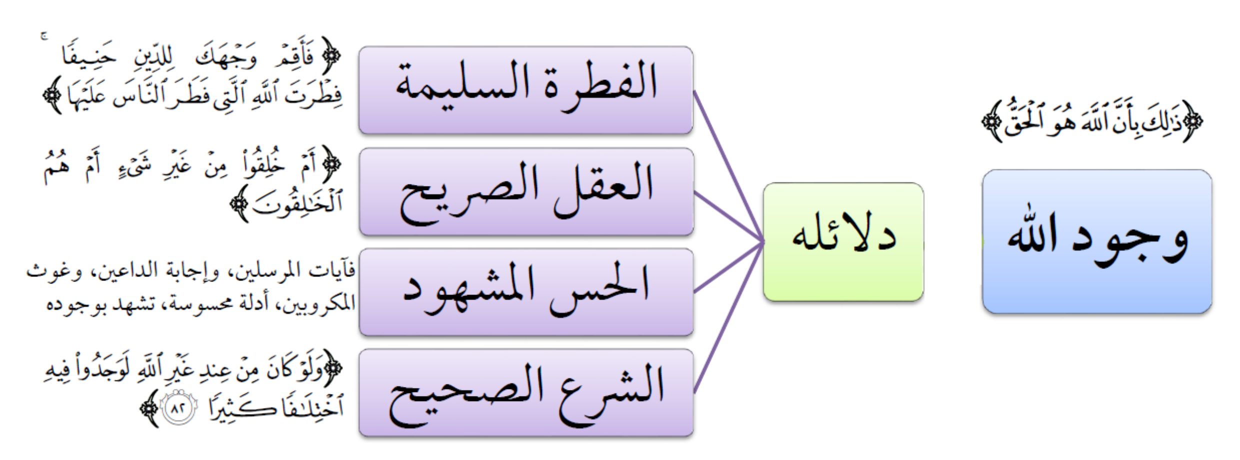
١- أوّلاً: الإيمان بوجوده.
٢- ثانيًا: الإيمان بربوبيته.
٣- ثالثًا: الإيمان بألوهيته.
٤- رابعًا: الإيمان بأسمائه وصفاته.

بمعنى أنّه لا يتّم الإيمان بالله، أنّه لا يمكن لأحد أن يكون مؤمنا بالله، إلّا وقد جمع هذه المفردات الأربعة: الإيمان بوجود الله، الإيمان بربوبيته، الإيمان بألوهيته، الإيمان بأسماءه وصفاته.

المقطع (٥) : الإيمان بوجود الله

الإيمان بوجود الله

أمَّا المقام الأول وهو الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى فهو لا شك مطلب أساس وهو مفرق الطريق بيننا وبين الملاحدة على إختلاف أنواعهم؛ الملاحدة على إختلاف أنواعهم ينازعوننا في هذا المقام كما سيتّضح.



وجود الله تعالى دلّت عليه جميع أنواع الأدّلة. دلّت عليه الفطرة ودلّ عليه العقل ودلّ عليه الحس، ودلّ عليه الشرع.

دلائله - الفطرة

أمَّا الفطرة: فأعيد القول أنّ الفطرة هي ما رُكِزَ في النفس من غير سبق تعليم. فطر الله الإنسان على جملة من الأشياء.

أضرب لكم مثلا: الرضيع حينما يخرج من بطن أمّه ألا ترون أنّه يتقبل ويلتقم ثدي أمّه ويرتضع منه، هل تلقى دروسًا خصوصية في هذا وقيل له إن لم تفعل هذا، فهذا سيؤدي إلى عطبك وهلاكك. فطرةُ الله على جلب المنافع؛ لو أنّه أحسّ في شي حارّ قريب من بدنه كفَّ عنه، هكذا فطرة.

فالله تعالى فطر الإنسان على أشياء. من أعظم الأشياء التّي فطر الله النَّاس عليها الإيمان به. قال تعالى في الحديث القدسي "خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين" وتلونا آنفًا قوله ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. وفي الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: "كلّ مولود يولد على الفطرة -وفي رواية على الملة- فأبواه يهوّدانه أو ينّصرانه أو يمجسانه" ولم يقل يؤسلمانه، لأنّ الفطرة هي الإسلام.

فلو نفترض هذه الصورة الخيالية، لو فرضنا أنّ طفلا ولد ووجد في جزيرة نائية دون أيّ مؤثرات - بلا أبوين - . وهيّء الله له من أسباب العيش ما يحفظه وهذا أمر يقع - أمس أقرأ في الجريدة أنّه تمّ العثور على طفلة عمرها أربع سنوات في إحدى الغابات - هكذا بلا أبوين، نشأت بين الحيوانات وارتضعت ونشأت.

إذًا هذا ليس خيالا، هذا واقع ولطالما نُسجت قصص حول هذا؛ قصص مثل حيّ بن يقظان عند العرب، ومثل قصّة لتشارلز ديكنز عند الغرب وغيرها، تتعلق بميلاد طفل في جزيرة نائية.

الشاهد، لو قدَّرنا هذه الصورة، ثق تمام الثقة أنّ هذا المخلوق الإنساني سيكبر ويترعرع وهو يعتقد بأنّ هذا الكون لابُّد له من موجد، وأنّ هذا الموجد لابُّد أن يكون قديرًا، عليمًا، قويًّا، قاهرًا، له صفات الكمال.

صحيح أنّه لن يهتدي إلى التفاصيل، لا يمكن أن يهتدي إلى أنّ ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾، لا يمكن أن يهتدي إلى أنّ الله ينزل كلّ ليلة في الثلث الأخير من الليل. لا لن يدرك هذه التفاصيل، كما أنّه لن يدرك أحكام الطهارة والصلاة والزكاة والصيام، لكن المقصود هي الفطرة الأصلية. سوف ينشأ على الفطرة؛ أنّ لهذا الخلق خالقًا وهو الله عزَّ وجل.

هذا ما نعنيه بالفطرة، وبهذه المناسبة فإنّني أنبّه الإخوة - وفقهم الله - إلى أن نُميط اللّثام عن الفطرة في دعوتنا وبرامجنا. ثق تماماً أنّك مهما رأيت من فاسق وعتّل وغليظ، فعنده فطرة، شاهد لما تقول، حاول أن تميط عنها اللّثام.

لأنّه هو تماماً مثل السيارة العالقة، السيّارة العالقة حتّى تتحرّك يحتاج الإنسان إلى أن يزيح عنها الرمل لكي تخرج من هذا العلوق. هذا الإنسان الفاسق الغافل فيه فطرة تراكم عليها غبار، فالموّفق هو من يجعل هذه الفطرة تتنفس وتبصر الحقيقة.

دلائله - العقل الصريح

أمّا الدليل الثاني على وجود الله تعالى فهو العقل الصريح، وحينما نقول (الصريح) فإنّنا نقصد به العقل النقيُّ الذي لم ينحرف بالشهوات والشبهات. فالعقل الصريح يدّل على وجود الله.

قال الله تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ هاتان الجملتان يا إخوة كافيتان عقلًا في التدليل على وجود الله. كيف ذلك؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، يعني أنت حينما ترى هذا الكون بأفلاكه السماوية ومخلوقاته الأرضية، طبيعي أن تتساءل كيف وجد؟

ليس ثمَّ إلاّ ثلاثة إحتمالات. الإحتمال الأوّل مثلا هو أن يكون أوجد نفسه بنفسه.

١- الإحتمال الثاني: أن يكون وُجد صدفة. فلننظر، هل يمكن للشيء أن يوجد صدفة! يعني لو قلت لعاقل: أنا كنت والله أسير بالصمّان أو بالدهناء؛ صحراء دويّة لاأدري اليمين من اليسار، لا ترى إلاّ خط الأفق. ثمّ فجأة -في لحظة- قام قصر مشيد وحوله حدائق غنَّاء وتأخذ تفيض في الوصف. ماذا سيقول لك؟ سيقول: "اسم الله عليك، ماذا أصابك؟" يعني جننت؟ سيتّهمك في عقلك، لأنّ هذا أمر لا يمكن أن يقع، أنّه فجأة يظهر هذا الشيء بلا مقدّمة. إذًا دعوى أنّ هذا الكون وجد صدفةً، هذه دعوى ساقطة.

٢- الإحتمال الثاني: أن يكون هذا الكون أوجد نفسه، نفسه يعني ذرَّات ومكونات، هذا الكون أوجد نفسه بنفسه. أيضا هذا الإحتمال ساقط لأنّ هذا الشي قبل أن يوجد كان عدمًا. والعدم لا يُنشئ وجودا.

ولهذا جبير بن مطعم رضي الله عنه حينما جاء يفاوض النبي ﷺ في أسرى بدر وقام النبي ﷺ يصلي والمشركون مربوطون في سوار المسجد، أخذ يستمع لقراءة النبي ﷺ، فقرأ سورة الطور فلمّا بلغ قول الله تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا

﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يقول: " كاد قلبي أن يطير وكان ذلك أوّل ما دخل الإيمان في قلبي". جملتان فقط ناسفتان لمذاهب الملاحدة.

٣- إذًا، إذا لم يكن هذا ولا هذا، ما بقي إلاّ احتمال واحد وهو أن يكون أوجدها موجد. هذا الموجد هو الله عزّ وجل. هذا أمر تقطع به العقول. أنا مثلاً حينما آتي وأجد هذه القنينة على الطاولة، ببساطة أكتشف أن ثمّ من وضعها هنا. حينما أجد هذا الجهاز يعمل أمامي، سأكتشف أنّ هناك من أعدّه ورتّبه، طبيعي ما من وجود إلاّ وله موجد.

وهذه أدلّة عقليّة لم يزل من يستّدل بالعقل يثبتها. ألا تسمعون كثيرًا بتعبير "واجب الوجود"، "ممكن الوجود". هذه من تعبيرات المتّكلمين لكنّها ممّا نحتمله -يتّسع لها المقام.

إذا قيل (واجب الوجود) فالمقصود "بواجب الوجود" الله سبحانه وتعالى؛ يعني (واجب الوجود) هو الذّي لا يفتقر في وجوده إلى موجد، فلا ينطبق هذا الوصف إلّا على الله تعالى. إذا قيل (ممكن الوجود) فهو الذي يفتقر في وجوده إلى موجد. فجميع المخلوقات تدخل في دائرة (ممكن الوجود).

هذه من إصطلاحات المتّكلمين لكنّها صحيحة يعني لا ننازع فيها وإن لم نحتج إليها.

دلائله - الحس المشهود

أمّا النوع الثالث من الأدّلة يا كرام فهو الحسّ المشهود.

الواقع أنّ الله تعالى نصب لنا من الأدّلة الحسيّة ما يدّلل على وجوده سبحانه: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾، أنظروا يا إخوان طريقة القرآن - سبحان الله العظيم - في تحريك البلداء، الغافلين، النائمين الذين تمّر عليهم المشاهد صباح مساء دون أن تحرك فيهم ساكنًا، القرآن كأنّه كمن يمسكه من كتفيه ويهزّه ليوقظه. ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۞ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۞ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۞ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۞ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾. أنظر هذه السلسلة المتلاحقة من الأسئلة، تترك من فيه بصيص من نور العقل يتحرك.

هذا هو مرادنا بالحسّ المشهود، والحس في الواقع هذه إحدى صوره والصورة الثانية يعني سوى الآيات الكونية، ما أحسّه وشاهده كثير من النَّاس في آيات الأنبياء؛ من إجابة الداعين وغوث المكروبين.

الواقع أنّ هذا دليل حسّي يعني مثال، حينما يقول نوح عليه السلام ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ أربع كلمات. أربع كلمات يفوه بها نوح عليه السلام، فما يجري؟ ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ إذًا معنى ذلك أنّه حينما دعا بهذه الدعوات، هناك من سمع دعاءه وأجابه. إذًا هذا دليل حسّي على وجود المجيب.

أنت حينما تتّصل على صاحبك، تضغط أرقام معيّنة ثمّ بعد النغمة تسمع صوت " نعم، السلام عليكم " ماذا تكتشف؟ أنّ صاحبك موجود. فهذه الآيات، آيات حسيّة تدل على وجود الله.

حينما يقوم النبي ﷺ على المنبر ويقول: "اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا ". فتخرج سحابة من وراء سلع كالترس فتتوسط في السماء ثمّ تنتشر وتبرق وترعد. فلا ينزل رسول الله ﷺ إلّا والمطر يتقاطر من لحيته. على ما يدّل؟ على أنّه لمّا قال: "اللهم أغثنا " أغاثه الله. ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾.

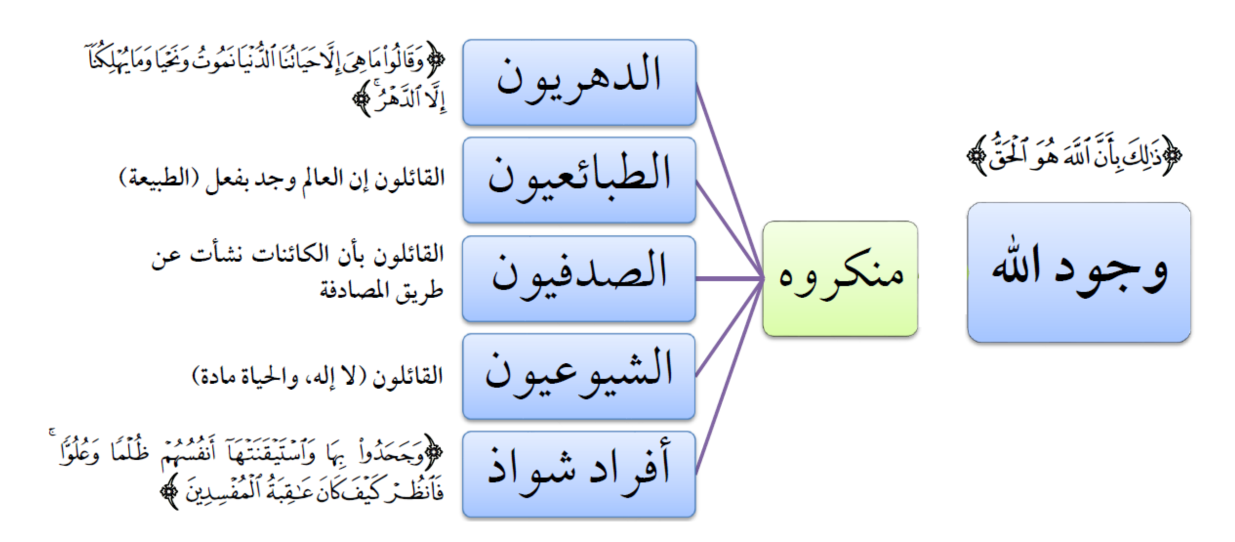
إجابة الداعين وغوث المكروبين دليل حسي على وجود الله.

دلائله - الشرع الصحيح

ثمّ أيّها الكرام، هذا الشرع المطهر المحفوظ بين دفتي المصحف دليل برأس كلّ آية - دليل برأسها - على إثبات وجود الله. إذ ﴿ لَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾.

فلو تأمّل منصف في كلام ربّ العالمين وحكمه وأسراره، لأدرك أنّ هذا لا يمكن أن يصدر من خلق عاديّ، فهو دليل على وجود الله.

طبعا هذه بحمد الله ليست محلّ نزاع عند أسوياء النّاس لكن كما قال في الحديث القدسي "فاجتالتهم الشياطين"، فوجد من بني آدم من اجتالته الشياطين وطوّحت به في بهاوي الإلحاد، فأنكروا وجود الله. وقد رتّبت هؤلاء على طوائف. منهم:



منكروه - الدهريون

من الدهريون؟ الذين ينسبون الأشياء إلى الدهر، وهم تماماً ملاحدة هذا الزمان والفلاسفة الأولّون الذين يقولون بقدم العالم وخلود العالم، هؤلاء هم الدهريون. قال الله تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾. وعبّر عن هذا أحدهم فقال: " أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلاّ الدّهر".

هذه النظرية يا إخوان هي نظرية الفلاسفة. الفلاسفة طائفة لا تنتمي للأنبياء ولا للرّسالات السماوية، وإنّما هم قوم يعملون أفكارهم البشرية.

فالفلاسفة المتقدمون كانوا يقولون بقدم العالم؛ أنّ العالم قديم ليس له موجد بل هو متناهي في القدم. وإن علّلوا وجوده قالوا: هذا يرجع إلى العلّة الفاعلة. ويقولون بالعقول التسعة وأمور خبط عشواء ما أنزل الله بها من سلطان ولا تمّت إلى الأدّلة الصحيحة بصلة. وما نهاية العالم؟ قالوا: لا نهاية له، العالم مستمر إلى أبد الأبدين. هذا ما تسمعونه أحيانا بقول "قدم العالم" و"خلود العالم"، هذه نظرية الفلاسفة.

الملاحدة في هذا الزمان الذين نجم ذكرهم وكثروا -لا كثَّرهم الله- وصاروا الآن يتّترسون بالوسائط الحديثة: التويتر، الفيسبوك، يتّخذ أحدهم إسمًا مستعارًا ويقذف بالزبد وبغثائيّاته من خلال هذا الإسم الوهميّ، ساروا على سيرة الدهريين الأوائل. وطبعا لهم جذور في أوروبا، فحركة الإلحاد تنمو الآن وباطّراد في أوروبا. طبعا صداها ينعكس حتّى على من بين ظهرانينا فيوجد من أصحاب القلوب المريضة والنفوس المعتّلة من يتجاوب معهم. حتّى قيل في تقدير نِسبهم أقاويل مبالغ فيها.

ونحن على ثقة أنّ هذه كلمة خبيثة اجتثت من فوق الأرض، ليس لها قرار؛ كلمة الإلحاد كلمة خبيثة لا يمكن أن تدوم لأنّها لا جذر لها في القلب. لكنّها يشتغل بها بعض المنكوسين الذين سبقت لهم من الله السوأى حينًا من الدهر ثمّ تفنى.

إذًا من المناقضين لنا في هذا المقام في إثبات وجود الله: الملاحدة الدهريون .

منكروه - الطبائعيون

منهم أيضا الطبائعيون نسبة إلى الطبيعة (Nature). هذا مذهب فلسفيّ معروف في العالم الغربي، وهو إحالة الأشياء إلى الطبيعة وزعم أنّ الطبيعة هي المؤثرة بذاتها.

هذه النظرية هي التّي نقضها القرآن بقوله ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾، الشيء لا يخلق نفسه. ما الطبيعة؟ الطبيعة صمّاء بكماء عمياء، لا يمكن للشيء أن يوجد نفسه بنفسه. ماذا كان قبل أن يوجد، حتّى يوجد نفسه؟ فهذه نظرية الطبيعة التّي يعتنقها بعض المغرورين ويفسّرون بها ظهور العالم.

العجب كيف يعتقدون بهذه العقيدة وكيف يتسلل هذا إلى بعض كتّابنا للأسف وأدباءنا. تجد بعض الإعلاميين والصحفيّين حينما يريد أن يصف مثلا منظرا طبيعيًّا جماليّا، يقول: "أبدعت الطبيعة في رسم هذه اللوحة" : هذا اسقاطات ومن آثار هذه النظرية الإلحادية.

أو حينما يتكلم عن كوارث بيئية يقول: "غضبت الطبيعة وحصل كذا وكذا..."، نسبة الشيء للطبيعة وإسناده إليها، هذا من آثار هذه النظرية الإلحادية.

منكروه - الصدفيون

أيضا القائلون بالصدفة، الصدفيون الذين يزعمون أنّ هذا الكون وجد صدفة. ما الذّي يرّد عليهم في الآية السابقة ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، هذا نقض لنظرية الصدفة. لايمكن أن توجد الأشياء صدفة كما نوّهنا آنفًا.

يعني لو قيل لك مثلا أنّه هناك مطبعة انفجرت وتطايرت حروفها في الفضاء ثمّ بعد ذلك نزلت على سطح الأرض، فنزلت على صفة معلّقة امرىء القيس "قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدخول فحومل"، لقيل أنّ هذا لايمكن؛ أن تنفجر الحروف وترتفع وتنزل ثمّ تطلع مصفوفة على شكل معلقة امرىء القيس، ما يمكن.

إذا كان هذا لا يمكن، فكيف يمكن هذا العالم العلوي بأجرامه وأفلاكه، وهذه الأرض يمكن أن تكون على هذه الصفة والتناسق وتعاقب الليل والنهار وانتظام الفصول الأربعة والصفات الفيزيولوجية في الأبدان وغير ذلك، تكون صدفة.

القوم يفرّون والعياذ بالله من نداء الإيمان. القوم يهربون من كلّ تفسير إيماني. ممكن يقولوا بأيّ كلمة مغربة موغلة في الباطل دون أن يذعنوا ويخضعوا ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾.

خذ على سبيل المثال من النظريات الإلحادية: نظريّة داروين - تشارلز داروين - ماذا قال؟ قال: لا يوجد شيء أنّ الله خلق آدم وخلق من آدم حواء وأسكنهم الجنّة وأهبطهم إلى الأرض. كل هذا المذكور في العهد القديم - يعني في التوراة- في سفر التكوين أو في الإسلام، كلّ هذا مجرّد كلام.

إذًا ما الذّي جرى؟ قال هؤلاء الآدميّون هم متحدّرون من سلسلة القردة العليا، مجرّد دراسة تشريحية للإنسان وللقرد تدّل على أنّهما من أصل واحد. إذًا هذا الإنسان تحدّر من هذه المخلوقات.

أين تحدّر؟ قالوا هناك (A missng link)؛ يعني هناك حلقة مفقودة لا ندري ما هي.

كل هذا الكلام المتكلف المزعوم، كلّه لأجل الفرار من إثبات القصة الدينيّة التي قصّها الله تعالى في خلق آدم وزوجه حواء وإبليس. هكذا الإلحاد إذا سكن النفس.

منكروه - الشيوعيون

فمنهم الشيوعيون. وأنتم عشتم الفصول الأخيرة من انقضاء دولتهم فقد عاش الإتّحاد السوفياتي سبعين سنة فقط ثمّ لم يتمكن من التماسك لأنّه مبني على جُرف هار.

يقوم على "لا إله" والحياة مادّة. ومن كانت هذه عقيدته فلا يمكن أن يثبت. كما قال ربنا ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

أخيرا هناك بعض الأفراد الذين ينكرون وجود الله على فترات متباينة.

أشهر من عرف بإنكار وجود الله، من؟ فرعون حينما قال ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. هكذا قال لموسى بكل بجاحة ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنّه كان يدّعي قال ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، فهو أشهر من عُرف بإنكار الربوبية، بل بإنكار وجود الله تعالى.

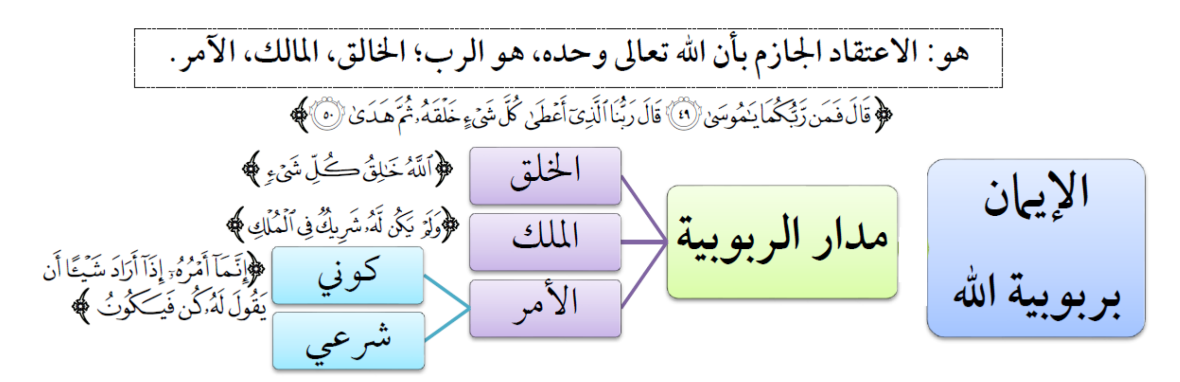
إذًا في الواقع أنّ هذا المقام - وهذا مقام الإيمان بوجود الله - مقام كما رأيتم نفارق فيه الملاحدة على إختلاف تسمياتهم.

المقطع (٦): الإيمان بربوبية الله

الإيمان بربوبية الله

أما الإيمان بربوبية الله، فإنه معنًى أخص من الإيمان بوجود الله؛ الوجود يعني قضية مبدئية لكن هناك ما هو أخص من مجرد الوجود، وهو أن تعتقد أن هذا الرب الموجود خالقٌ مالكٌ مدبر، بمعنى أن موجد هذا الكون لا بد أن يكون جامعًا لصفات الربوبية.

مدار الربوبية



وصفات الربوبية تؤول إلى ثلاثة أشياء: الخلق والملك والتدبير؛ الخلق بمعنى الإيجاد من العدم، الملك معروف معناه، والتدبير هو التصريف وهو الأمر، مدار الربوبية إذن على هذه الأشياء.

دليل الخلق كثير جدًا في القرآن العظيم، كقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر: ٦٢]، ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. لو تريد تشوف كلمة خلق وتصريفاتها في القرآن لخرجت بمئات الشواهد.

الملك: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١]، ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١]، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١]. أدلة الملك في كتاب الله لا حصر لها.

الأمر الذي هو التدبير نوعان في الواقع: كوني وشرعي

- الكوني هو ما يجريه الله سبحانه وتعالى في ملكوت السماوات والأرض كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].
- وأما الشرعي فهو ما يقضيه الله تعالى من الحلال والحرام والحظر والإباحة كقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[النساء: ٢٣]، ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٥]، ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] هذا أمر شرعي.

فهذه الربوبية، لا يتم الإيمان بالربوبية إلا باعتقاد أن الله هو الخالق لا خالق سواه، وأن الله هو المالك لا مالك سواه، وأن الله هو المدبر لا مدبر سواه.

وهنا تبرز أسئلة:

- ربما قال لك قائل طيب ماذا تصنع بقول الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، هذا يدل على أن في خالق غير الله، فكيف نجيب عن هذا الإيراد؟

يعني أن الخلق تارة يطلق على الإيجاد من العدم وهو الذي لا يشارك اللهَ تعالى فيه أحد، وتارة يُطلق الخلق على التصوير والتشكيل؛ كأن يأتي مثلًا نجار إلى جذع شجرة فيقطّعها ويشذبها ثم يصنع منها طاولة أو يصنع منها خزانة كتب أو كرسي أو ما أشبه، إذن هذا هو المقصود. يعني حتى نسلم من القول بأنه مجاز نقول أن كلمة الخلق لها استعمالات؛ تارة تستعمل كلمة الخلق بمعنى الإيجاد من العدم، وتارة تستعمل بمعنى التشكيل.

فلأنت تفري ما خلقت وبعض الناس يخلق ثم لا يفري

ومثل أن المَلَك يتصور الرحم ويصوّر النطفة يعني، فهذا يسمى نوع من التخليق ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦].

- أيضًا لو قال قائل نحن نقول لا مالك إلا الله، ماذا نصنع بقول الله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، أو مثلًا لام التمليك: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢]، ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] هذه لام التمليك، فكيف يقول هذا مع أننا قلنا آنفا لا مالك إلا الله؟ كيف نجيب عن هذا الإشكال؟

أن الملك المضاف إلى الإنسان ملك محدود، محدود زمانًا ومكانًا وقدرًا، أليس كذلك؟ يعني بمعنى أن المِلك المضاف إلى الإنسان ملك نسبي؛ يعني ماذا يمكن أن يملك؟ شيئًا قليلًا ومؤقتًا يعني ورثه عمن سبقه ويورثه لمن بعده. ثم إنه أيضًا لا يُمَكَّن من أن يتصرف فيه كيف شاء. الآن لو قدرنا أن لإنسان مثلًا رزمة من النقود، قال والله هذا حلالي وأنا أريد الآن أني أحرقه أضعه في النار، هل نُمكّنه؟ نضرب على يده ونقول أنت سفيه يحجر عليك حتى وإن ادعى أنه ماله نقول وإن كان هذا المال مالٌ لك لكنك لا تُمكّن من التصرف فيه على وجه الإفساد. أما مُلك الله تعالى فهو مُلك مطلق مُلك دائم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]، ولهذا فنقول المِلك لله.

- كذلك الأمر له سبحانه، إذا قلنا الأمر لله يعني التدبير لله، فماذا نصنع بمثل قول الله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، هذا نوع من التدبير للبشر. ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]، ومثل قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: ٥-٩]، أرأيتم إذن؟ هناك مشيئة وتدبير لغير الله ونحن قد قررنا أن من مقتضيات الربوبية أن يكون التدبير لا مدبر إلا الله، لا آمر إلا الله، فما الجواب؟

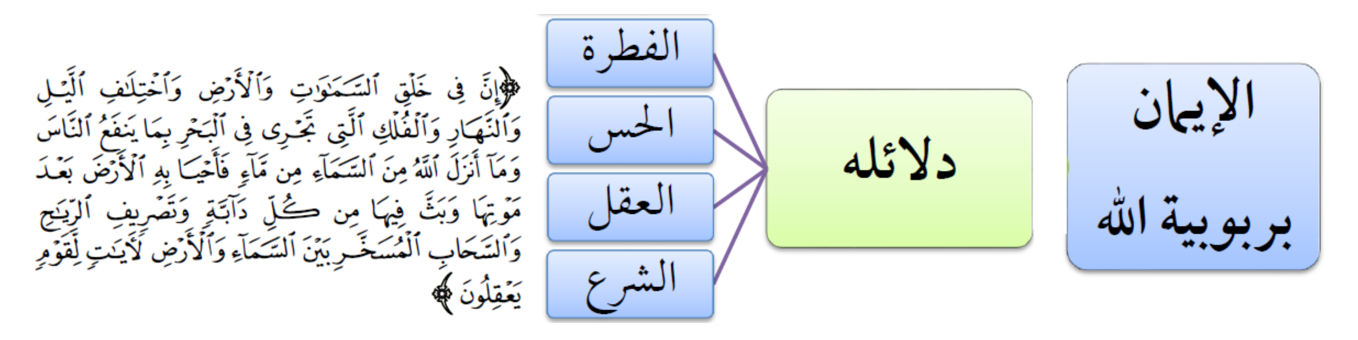
يعني هذا التدبير أو المشيئة المضافة إلى العبد محدودة؛ يعني أنها داخلة تحت مشيئة الله، نحن لا ننفي أن للعبد مشيئة - لا شك له مشيئة - لكن مشيئته ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

إذن نحن لم نخرج عن ما قررنا، فربوبية الله ثابتة ولا شريك له في ملكه ولا في أمره.

ولهذا يا إخواني انظروا كيف نسف الله تعالى جميع متعلقات المشركين يقول الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، يعني لا يملكون استقلالًا. فربما قال قائل حسنًا لا يملكون استقلالًا لكن يملكون مشاركة، قال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾[سبأ:٢٢]. فربما قال قائل نعم لا يملكون استقلالًا ولا مشاركةً لكنهم بمنزلة الخدم والحشم والأعوان الذين لا يستغني عنهم السلطان، قال الله: ﴿.. وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، من معين ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، انتهى كل شيء.

بقي شيء واحد يمكن أن يتشبثوا به -وهذا يتعلق بتوحيد الألوهية لكن دعا إليه المقام- قد يتشبثون بشيء وهو قضية أن هؤلاء المعبودات لها جاه عند الله ومنزلة، فلذلك نحن ندعوها تشفعًا بها، فقال الله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]. إذن انتهى كل شيء يمكن أن يتعلق به المشرك سقط؛ لا ملك، لا مشاركة، لا معاونة، لا شفاعة؛ كله لله عز وجل إذن أين تذهبون؟ هذا يتعلق بتوحيد الألوهية.

دلائل ربوبية الله



أما دلائل ربوبية الله سبحانه وتعالى فهي متعددة وقد يكون أغنى عنها ما ذكرناه آنفا: الفطرة والحس والعقل والشرع فكل هذه في الواقع تدل على أن الله هو الرب الخالق المالك المدبر سبحانه وبحمده.

واعلموا يا رعاكم الله أن القرآن العظيم مليء بدلائل الربوبية حتى لربما تبلغ يمكن ثلث آيات القرآن. لأن هذه أشبه ما تكون بالقواعد؛ مثل ما الإنسان إذا أراد أن يشيد بناء بما يبدأ؟ بصب القواعد والأساسات، إثبات الربوبية أساس وقاعدة لما بعده؛ إذا امتلأ القلب يقينًا بأن الله هو الخالق لا خالق سواه، أنَّ الله هو المالك لا مالك سواه، أنَّ الله هو المدبر لا مدبر سواه، فالنتيجة الطبيعية لذلك ألَّا يعبد سواه، لهذا أفاض الله في ذكرها.

والواقع يا كرام أن الذي يُسرِّح طرفه في مظاهر الربوبية ومعاني الربوبية يجد نعيم ولذة. أنا أدعوكم إلى قراءة كتاب (مفتاح دار السعادة ومنشور أهل العلم والإرادة) لابن القيم رحمه الله، لكنه نزهة في الواقع.

حينما تقرأ في الكتاب تجد عالمًا مؤمنًا مستنيرًا يرى بنور الله، ويُسرِّح طرفه في ملكوت السماوات والأرض، ويتفكر وبأسلوبٍ بديع أدبي رشيق، يعني يأخذك معه في تأملاته؛ يتأمل في السماء، يتأمل في الأرض، يتأمل في الطيور، في

الوحوش، في الأسماك، في الحيوانات واحدة واحدة ، يعني حينما يتكلم عن النمل كلام عجيب، حينما يتكلم عن النحل كلام عجيب، عن الهدهد، عن أشياء.. سبحان الله العظيم تقول في نفسك ماذا لو أتيح لابن القيم رحمه الله أن يطّلع على المعارف الحديثة في علم الفلك، في علم الفيسيولوجي علم وظائف الأعضاء، هذا وهو ليس أمامه إلا ما يُدرك بالبصر المشاهد فقط، ومع ذلك تسبح في هذه التأملات، فكيف لو أُتِيح له ما أُتِيح للمعاصرين! لكن المعاصرين سبحان الله العظيم مغيبون محجوبون.

الذين اكتشفوا العلوم الحديثة من الأوروبيين وغيرهم، عاشوا حالة فصام بين الإيمان والعلم حتى أنهم يرون أن العلم نِد للإيمان، ويرون أنه حتى يكون الشيء scientific كما يقولون علمي لا تخلطوا بالدين ولا تدخلوا العبارات الدينية في الأشياء العلمية، يعتبرون علمي لا ديني، وديني لا علمي، رأوا أن بينهما خصومة وفصاما فلذلك لم ينتفعوا كما قال الله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] تجدهم يتلون بعض المعلومات الدقيقة المهولة المدهشة مثلما يقرأ أحدهم جريدة، لا ينتفع ما يقول، كما يقول المؤمن "سبحان الله لا إله إلا الله".

الآن المؤمن حينما مثلًا يخرج إلى البرية ويرى نبتة ويشوف ألوان جميلة يسبح قلبه في التأمل، كما قال ابن المعتز: "وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه الواحدُ". حينما تجد أحيانًا بعض الحشرات الصغيرة بألوانها تعجب من دقة خلقها وتتأمل وتتفكر فيها.

تأمل في نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين ناضراتٍ	بأحداقٍ هو الذهب السبيك
على قُضُب الزبرجد شاهداتٍ	بأنّ الله ليس له شريك

هكذا يبصر المؤمن بنور الله، لا يكتفي باللقطات السطحية، يرى ما وراء الصور والأشكال ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

يا أخوان -سبحان الله العظيم- القرآن مكنز منجم بدلائل الإيمان، ولهذا أفاض القرآن في ذكر دلائل الربوبية. ويجب أن نحرك بها القلوب قلوب الناس، لأنك إذا أتيتهم من هذا الباب -سبحان الله- كأنما تقودهم بخيط من حرير. لو تريد أن تعظ مثلًا بعض الأفراد عن الصلاة ومثلًا تخوفهم وتخوفهم، صحيح ممكن يحدث لهم أثر وموعظة لكنك إذا فتحت لهم آفاق الإيمان وتنفسوا الصعداء وشعروا أنهم مُحبين لله تعالى معظمين له، انقادت نفوسهم تلقائيًا واستجابوا وشعروا أن نعيمهم وأُنسهم في طاعة ربهم.

تأمل مثلًا هذه الأسئلة التي ذكرها الله في سورة الواقعة، كن معي:

~ ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ ۞ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۞ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٦١]، هذه النطفة المدرة التي تشمئز منه النفس وتشنؤها العين، يلقيها

الرجل في رحم الأنثى وينصرف، والمرأة تنصرف، لكن الله سبحانه وتعالى يجعل من هذه الخلية الميكروسكوبية التي لا تُرى بالعين المجردة، في ظلمة الليل تنقسم انقسامات متتالية ثم لا تلبث المرأة أن تشعر بأنه انقطع عنها الحيض، وصارت هذه العلقة تتغذى من جدار الرحم وتنمو وتنمو ثم يخرج بشرًا يمشي على رجليه! لا إله إلا الله، أي مسافة يا إخوة بين هذه الخلية الميكروسكوبية إلى أن يصبح الإنسان ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-١٠]، تخصصت خلاياه بأنواع من الوظائف.

- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤]، يأتي المزارع ومعه الكيس بذور ويمشي وينثر وينثر من هذا الحب، وربما أجرى عليه الماء وربما أمطرت السماء، وهو قد ذهب إلى بيته وشُغل، ثم لا يلبث أن يرجع بعد حين وهي سنابل تهتز في كل سنبلة مئة حبة! لا إله إلا الله وقد تصبح شجرةً باسقة. ما هي المسافة بين هذه الحبة أو هذة الشتلة وهذا الشجرة العملاقة؟ ما الذي جرى لا نلتفت لهذا!

- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، نكتفي بالقول والله في مطر في المنطقة الفلانية ارتفاعه كذا مليمتر والله المنطقة الفلانية جاءهم كذا وكذا، ونكتفي بالوصف الظاهر. لكن هل تأملنا يا كرام من ساق هذه الأطنان الهائلة من المياه وحملها بين السماء والأرض؟ لو اجتمع من بأقطارها بحاوياتهم، بصهاريجهم، بناقلاتهم على أن يسقوا عشر معشار ما يسقيه الله أرضًا بسبب هذا ما استطاعوا! ينقلها الله من المحيطات، شيء يأتي من المحيط الهادي من المحيط الهندي وتجتمع هذه السحب الثقال، ويأمرها الله أن تفرغ حمولتها في برية من القفار، شيء عجيب!.

- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١] غاية ما في الأمر أن نكتفي بالصورة الظاهرة؛ نجمع حطب ونوقده ثم نستدفئ، طيب من أين خرجت هذه الطاقة من هذا الخشب اليابس؟ سبحان الله، خشب يابس تُمسكه لا تجد فيه حرارة ثم لا يلبث أن يتوهج، كيف خرجت هذه الطاقة وحصل بها الدفء للمقيم وللمسافر ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣].

القصد يا كرام إن توظيف أدلة الربوبية في الإيمان من أعظم مقاصد الدين. بعض الناس يخطئ حينما يقول: موضوع توحيد الربوبية هذا توحيد أبو جهل -بعض الناس تقول هكذا- يعني قصده أن أبو جهل كان مقرًا به. كون أبو جهل مقرًا به لا يعني التقليل من أهميته. المقصود أن جميع البشر مقرون بهذا الشيء، جعله الله شاهدًا عليهم، فمن هذا المنطلق انطلق؛ لأن الله تعالى جعله منطلقًا للإقناع.

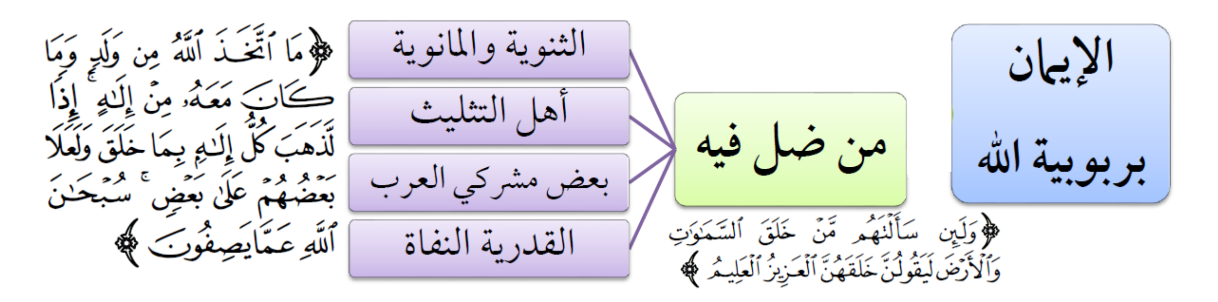
شوف ما هو أول أمر في القرآن العظيم وأنت تقرأ في المصحف ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي..﴾ ماذا؟ ﴿خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢]، ألا تلاحظون في هاتين الآيتين أن الله ابتدأهما بالأمر بعبادته، وختمهما بالنهي عن الشرك به، وما بين ذلك توحيد الربوبية.

أسَّس الله تعالى توحيد العبادة على توحيد الربوبية، يعني إذا أردت أن تقنع الناس باستحقاق الله للعبادة لا بد أن تقنعهم بالربوبية ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦١].

هكذا -سبحان الله- حينما قام إبراهيم عليه السلام أمام النمرود استدل عليه بدليل الربوبية قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ الإحياء والإماتة من الربوبية، فذاك قال: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ ودعا بسجينين قتل أحدهما وأطلق الآخر، قال شفت أحييت هذا وأمت هذا - مغالطة نوع من المغالطة -، إبراهيم أعقل قال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] الله أكبر.

فكما تلاحظون من دلائل الربوبية قال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] قال: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] ، يعني سبحان الله دليل الربوبية دليل قاهر.

من ضل فيه



من الذي ضل في هذا المقام في باب الربوبية؟

الثنوية والمانوية

طبعًا هناك فرقٌ ربما انقرضت منها الثنوية أو المانوية، من هؤلاء؟ هؤلاء هم المجوس الذين يعتقدون بوجود خالقين: إله النور يخلق الخير، وإله الظلمة يخلق الشر. هؤلاء يُقال لهم الثنوية، ويُقال لهم المانوية نسبة إلى ماني. لكن بالمناسبة مع أن هؤلاء يقولون بوجود خالقين لكنهم لا يجعلونهما خالقين متكافئين بل يجعلون إله النور أعلى من إله الظلمة، وهم متنازعون هل الظلمة قديمة أو محدثة.

أهل التثليث

ممن ضل في هذا أهل التثليث وهم النصارى لأنهم يقولون الأب والابن وروح القدس إله واحد.

بعض مشركي العرب

وممن ضل فيه بعض مشركي العرب الذين ينسبون بعض الأحداث إلى آلهتهم فيستقسمون بالأزلام ويزعمون أن آلهتهم تنفع أو تضر أو نحو ذلك من الاعتقادات الفاسدة.

القدرية النفاة

ممن ضل فيه القدرية النفاة، وهم موجودون في جميع الأمم وفي أمة محمد، أتباع معبد الجُهني الذين كانوا يقولون (العبد يخلق فعل نفسه). فقد أضافوا شيئًا إلى غير الله عز وجل، أثبتوا خلقًا للإنسان، قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان لكن الطاعات والمعاصي لم يخلقها، العبد خلق طاعته وخلق معصيته. لذلك قلنا إنهم مشركون في باب الربوبية.

على كل حال إثبات ربوبية الله تعالى من الوضوح بمكان، وللمتكلمين طريقة في إثبات وحدانية الربوبية يسمونها دليل التمانع، ما هو دليل التمانع عندهم؟

يقول لو قدّر أن في الكون خالقين، وأراد أحدهما تحريك شيء وأراد الآخر تسكينه، أو أراد أحدهما إماتته وأراد الآخر إحياءه، فالأمر لا يخلو من ثلاثة احتمالات: إما أن يقع مراد كل منهما أو ألّا يقع مراد أي منهما أو يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر.

فلننظر في هذه الاحتمالات قالوا: لو كان للكون خالقان وأراد أحدهما تحريك شيء وأراد الآخر تسكينه، أو أراد إحياءه والآخر أراد إماتته:

١- فالاحتمال الأول: أن يقع مراد كل منهما وهذا ممتنع، لأنه لا يُمكن أن يكون الشيء متحركًا ساكنًا في آن واحد، لا يمكن أن يكون حيًا ميتًا في آن واحد، لأن هذين نقيضين والنقيضان لا يجتمعان.

٢- الاحتمال الثاني: ألا يقع مراد أي منهما، وهذا أيضًا ممتنع لأن النقيضين لا يرتفعان، فإذا ثبت أحدهما ارتفع الآخر وإذا ارتفع أحدهما ثبت الآخر، فإما أن يكون حيًا أو ميتًا، وإما أن يكون متحركًا أو ساكنًا. ثم أيضًا عدم وقوع مراد أي منهما يعني أنهما لا يستحقان الألوهية.

٣- إذن ماذا بقي من الاحتمالات؟ الاحتمال الأخير وهو أن يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر، فمن وقع مراده فهو الإله المستحق للعبادة والآخر عاجزٌ لا يستحق العبادة.

هذا يُسمونه دليل التمانع ولا بأس به، يعني دليل عقلي مناسب. وربما دلَّ عليه قول الله تعالى، هم يقولون يدل عليه قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

لكن الأقرب في الدلالة أو الأقرب منه قول الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٩١-٩٢] يعني تشوف الآية أوضح دلالة، لو كان هناك إله غير الله ما الذي يمكن أن يقع؟ أن يستقل كل إله بملكه، ونحن لا نرى أن هذا الكون مقسمًا، نرى أن الكون يسير على نسقٍ واحد مما يدل على وجود إله وخالق واحد. ثم لو كان كذلك لعلى بعضهم على بعض؛ يعني لوقع بينهم مغالبة وصراع، وهذا غير موجود بل العالم منتظم مستقر مطمئن، سبحان الله عما يشركون.

المقطع (٧) : توحيد الألوهيّة

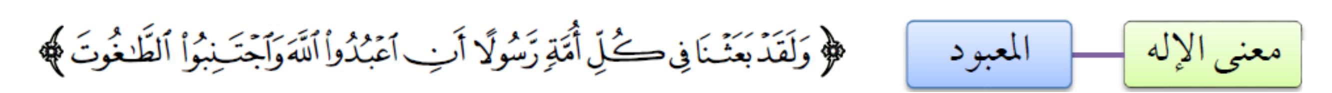
توحيد الألوهية

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى بنا المطاف إلى المقام الثالث من مقامات الإيمان بالله، وهو بيت القصيد في الواقع الذي بعث الله تعالى به النبيين ألا وهو توحيد العبادة، فإنه ما أرسل الله من رسول إلا ليقول للناس أعبدوا الله. قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النّحل:٣٦] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. فما هذا المشروع؟ مشروع الأنبياء جميعاً .

توحيد العبادة أو توحيد الألوهيّة هو الاعتقاد الجازم بأنَّ الله وحده هو الإله الحق المستحق للعبادة دون ما سواه. باختصار، إفرادُ الله بالعبادة، هذا مشروع الأنبياء جميعاً، به بعث الله الرُّسل وأنزل به الكتب.

معنى الإله

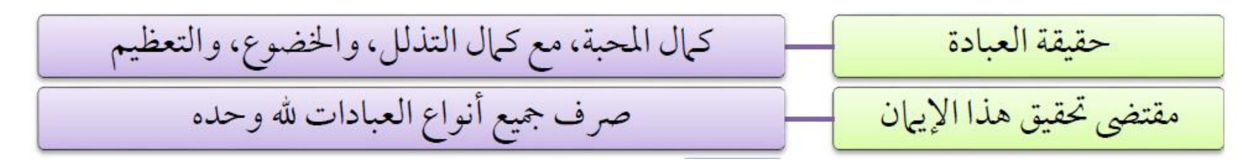


ما معنى الإله حينما نقول الألوهيّة؟

الإله مُشتقٌّ مِن (أَلَهَ ، يأْلَهُ ، أَلُوهَةً). هو أصلُهُ من (الوَلَهْ) وهو الإنجذاب والتعلُّق. فالإله بمعنى مألوه، فِعَال على وزن مَفعول، وهذا كثيرٌ في اللغة أن يأتي الشيء على وزن فِعَال ويُرادُ به مفعول؛ مثل: (فِرَاش.. مفروش) ،(كِتاب .. مكتوب)، (غِراس .. مغروس)، (بِساط .. مَبسوط)، وهكذا.

فإله، الصحيح أن المُراد بها مأْلوه لا آلِهْ، ليس فِعَال على وزن فاعِل وإنَّما بمعنى مَأْلوه أي معبود. فالإله: هو الّذي تأْلَهُهُ القلوب محبَّةً وتعظيماً .

حقيقة العبادة



إذاً الإله هو المعبود ، فما العبادة؟ ما دام فسّرنا المألُوه أي المعبود، ما العبادة؟

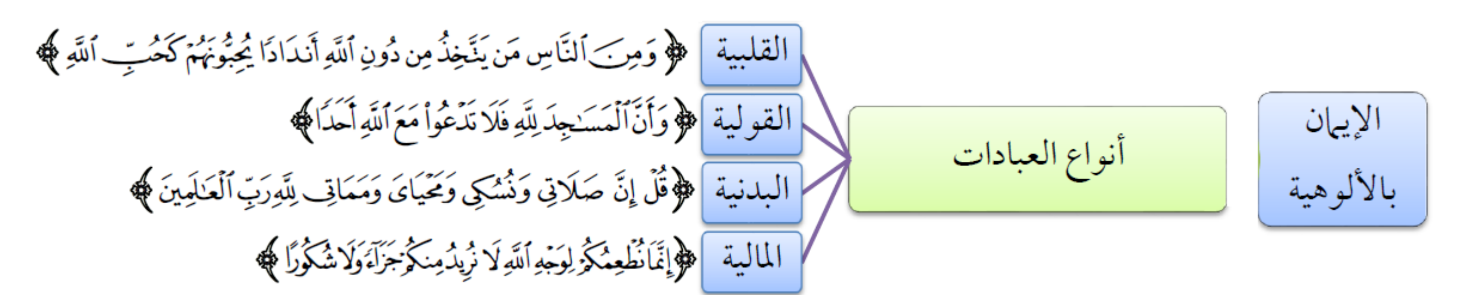
العبادة لها تعريفان: تعريف باعتبار حقيقتها، وتعريف باعتبار أفرادها:

- أما تعريف العبادة باعتبار حقيقتها: فهي كمال المحبة مع كمال الخضوع. فإذا اجتمع في القلب محبةٌ مطلقة وخضوعٌ مطلق فتلك هي العبادة. هذه العبادة من حيث الحقيقة والكُنْه.

- أما العبادة من حيث الأفراد والآحاد المندرجة تحتها: يعني تعريفُ العبادةِ باعتبار المُتَعَبَّدِ به، لا باعتبارِ المُتَعَبَّدِ له، فهي كما عرّفها شيخ الإسلام: أنّها أقوالٌ وأفعالٌ ظاهِرة وباطنة، أنها اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظّاهِرة والباطنة.

صار عندنا إذاً تعريف للعبادة باعتبار المُتَعَبَّدِ له: وهي كمال المحبة مع كمال الخضوع. وتعريف للعبادة باعتبار المُتَعَبَّدِ به: وهي اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظّاهرة والباطنة.

أنواع العبادات



و العبادة تتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح؛ ولهذا كان من العبادات :

١- ما هو قلبيّ.
٢- وما هو قولي.
٣- وما هو بدني.
٤- وما هو ماليّ.

كلُّه عبادة لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

فمشروع الأنبياء جميعاً هو أن يجعلوا حياة الناس لله رب العالمين:

- فيتقربون لله تعالى بقلوبهم: محبةً وخشيةً و رجاءً وتوكُّلاً وإنابةً.
- ويتقرّبون إلى الله بالأقوال: في الدعاء، فلا يصرفون الدعاء لغيره.
- بالأبدان: فلا يسجدون ولا يركعون لغيره، ولا يطوفون بالبيت لغيره، ولا يرمون الجِمار ولا يسعون بين الصفا والمروة لغيره.
- وبالأموال: فصدقاتهم وصلواتهم وزكواتهم لله رب العالمين.

هكذا تتحقق العبادة في هذا المظهر الظاهري والباطني.

ما هي العلاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهيّة ؟

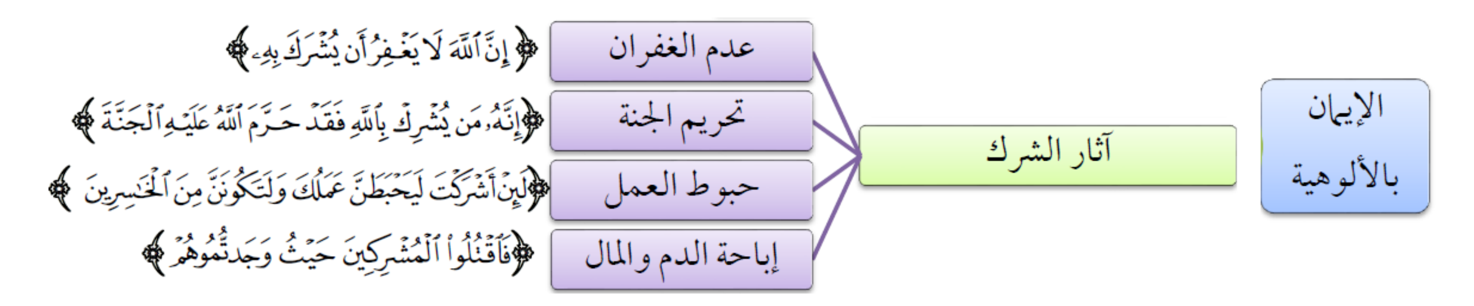
باختصار توحيد الربوبية مُستلزِم لتوحيد الألوهيّة، وتوحيد الألوهيّة مُقتَضٍ لتوحيد الربوبية:

- توحيد الربوبية مُستلزِم: يعني من أقرَّ بتوحيد الربوبية فلازمُ ذلك أن يوحِّد الله بالعبادة، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].
- وتوحيد الألوهيّة مُقتَضٍ لتوحيد الربوبية: فالإله الحقّ المُستحِق أن يُعبَد لا بد أن يكون ربّاً خالِقاً قادِراً مالِكاً مُدبّرا.

هذا كما ذكرنا هو الذي أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتب، فنوح عليه السلام قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، وكذا قال هود وكذا قال صالح وكذا قال لوط على نسق في سورة الأعراف، وحكى الله عنهم كذلك أيضاً في سورة الشعراء. فهذه دعوة الأنبياء واحدة لا فرق بينها، دعوةٌ إلى توحيد رب العالمين. وهكذا جاء محمد ﷺ فكان يقول : "قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا" وقال : " أُمِرتُ أنْ أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله".

آثار الشرك

وحينما ينخرم هذا الأصل العظيم وهو توحيد الألوهية، يترتب عليه من الآثارِ المدمرة شيءٌ كثير؛ على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمم والجماعات.



فأما على مستوى الفرد:

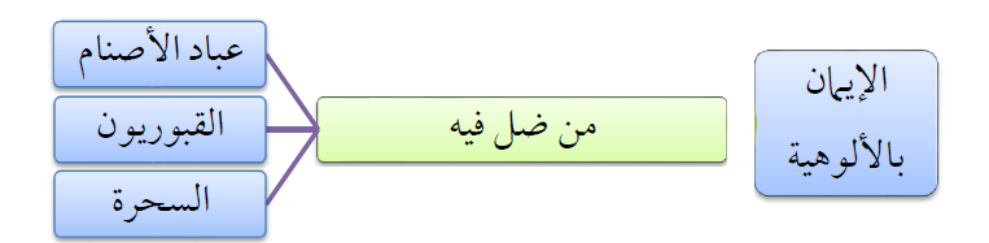
- فمن صرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى فإنَّ الله لا يغفر له؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] . فعدم توحيد الله بالعبادة يؤدي إلى عدم الغفران. وما ظنُّكَ بأحدٍ يوافي الله يوم القيامة وهو لن يغفرَ له -عياذاً بالله- لا أمل له ولا رجاء.
- تحريم الجنَّة: من كان كذلك فلازمه ألَّا يدخل الجنّة، فإنه لا يدخل الجنة إلا نفسٌ طيبة. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة:٧٢]. قالها عيسى عليه السلام حين قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

- مِنْ آثارِها حبوط العمل؛ أياً كان ذلك العمل ما لم يكُنْ مُتحقِّقاً فيه شرط التوحيد فهو باطل. قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]. سألت عائشة النبي ﷺ عن رجلٍ مِنْ أشراف مكة في الجاهلية يُقال له عبد الله بن زيد بن جدعان، وكان يسقي الحاج ويطعمهم ويفك العاني وله مآثر عظيمة، قالت: "هل نفعه عند الله؟"، قال لها: "إنّه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين"، إذن هذه تؤدي إلى حبوط العمل. بل لقد قال الله لنبيّه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] وحاشاه ﷺ، لكنَّ الله أراد أنْ يُبيّن عِظَمَ أمر الشرك، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

كما أنه يترتب عليه من الآثار الإجرائية في باب السياسة الشرعية:

- إباحة الدم والمال ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥]، هكذا في آية السيف، وذلك بعد أن أقام الله القوّة السُّلطانية للإسلام، وصار لهم دولة وصاروا يدعون إلى الدخول في دين الله عز وجل، أنزل الله تعالى آية السيف. فإذا وُجِدَ لأهلِ الإسلامِ قوّة ودعَوْا الناس إلى عبادة الله عز وجل، وأبى قومٌ إلا أن يُشرِكوا بالله، فإنهم يكونون تحت طائلة السيف. فَلَئِن كانت الدول والأمم تقتل لأجل ما يسمونه بالخيانة العظمى وهي قد تكون خيانة مثلاً لرئيس الدولة أو لدستور الدولة أو غير ذلك، فالخيانة العظمى هي خيانة رب العالمين بصرف العبادة لغيره سبحانه، فلهذا قال ﷺ: "أُمِرتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله".

من ضل فيه



عُبَّادُ الأصنام

أما المنحرفون في هذا الباب فكما لا يخفاكم عُبَّادُ الأصنام الذين يشركون بالله، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۞ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [النجم:١٩-٢٣] ولم يكن فقط العرب الذين يعبدون الأصنام، كان هناك الهندوس يعبدون أنواعاً من المعبودات والبوذيون والصينيون وغيرهم، كان الشركُ فاشياً في بني آدم.

أمّا العرب فكانوا في الأصل على ملّة إبراهيم عليه السلام، لكن دبَّ فيهم الشرك مع تقادم الزمن، حتى ظهر فيهم رجلٌ يُقال له عمرو بن لُحَيّ الخُزَاعِيّ، كان له رِئِيٌّ من الجنّ فأتاه وقال له : " ائتِ جُدَّة تَجِد أصناماً مُعَدَّة ". فذهب وكشف عنها في الموضع الذي ذُكِرَ له فإذا هي التماثيل التي كان يعبدها قوم نوح (وَدْ وسُواع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْرَا) فاستخرجها وبثّها

في قبائل العرب، فكان لكل قبيلة منها وَثَنٌ يعبدوه. وذهبَ إلى بلقاء الشام فأحضر هُبل وجعله عند الكعبة فعبدته قريش. فلهذا وقعوا في الشرك بسببه، وكانوا يقولون في تلبيتهم : "لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ملكته وما ملك".

هكذا وقع الشرك في العرب. وقد رأى النبي ﷺ عمرو بن لُحَيّ الخُزَاعي يجرّ قُصُبَهُ في النار لمّا أُرِيَ إيّاه في صلاة الكسوف.

القبوريون

ممن ظلَّ في هذا الباب القبوريون الذين يقصدون القبور ويعظمونها ويدعون أصحابها، وهذا شيء نشرته الرافضة فإن الروافض هم سبب الشرك في الأمة الإسلامية، فلمّا قامت لهم دولة يقال لها الدولة العبيدية الخبيثة، هي التي نشرت المشاهد بدلاً من المساجد وزعموا أنها لأولياء ولأهل البيت وغير ذلك، فصار الجُهّال يطوفون بها ويسألونها من دون الله.

حتى لما قُضيَ على الدولة العبيدية بقيت آثارُها في الأوساط السُّنيّة، فلا يزال كثير من المسلمين في بلاد توصف بأنها سنية وهم يقعون في هذه الورطات الشركية. أمّا في بلادهم فحدث ولا حرج: من دعاء غير الله والاستغاثة بغير الله وسؤال غير الله.

السّحَرَة

كذلك السحرة، فإن السحرة قد وقعوا في الشرك في توحيد الألوهيّة لأنهم يدعون الشياطين، فلا يتم للساحر مطلوبه إلا بأن يتقرّب للجن بشكل من أشكال الشرك.

والواقع أنّ هذا الأمر لعِظمه وخطورته جرى التنبيه عليه والإفاضة فيه في كتاب الله وفي كلام رسول الله ﷺ بما لا مزيد عليه، لذلك وجد ما يسمى بسدّ الذرائع المفضية الى الشرك.